

الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَأوَنَد

خاطرة جريدة المساء

-58-

قال تشيخوف الأديب المفكر الروسي (لا الحب، ولا الصداقة، ولا الاحترام يربط بين قلوب الناس قدر ما تفعل الكراهية المشتركة بينهم).

هل هذا كلام يصدر عن حكمة؟ وهل تؤكد التجربة العملية صدقه؟

الواقع أنّ تشيخوف لا يمكن أن يصدر مثل هذا الحكم لولا أنّه خبر الحياة العملية واكتشف بعض أسرار النفوس البشرية. ولذلك يجدر بنا أن نناقش كلّ فكرة من أفكار هذا الحكم. فأنا قد أحبّ إنساناً من الناس لأنّه يتّصف بمكارم الأخلاق أو لأنّه يتمتّع بجاذبية غير عادية، وقد أحبّ امرأة جميلة ذات سحر خاص، لكنّ هذا الحب لا يبلغ درجة من القوّة بحيث يجعلني أقبل كلّ رأي من آراء الحب، فأنا أحبه وإن خالفته في الرأي، وأنا أحبه وإن كانت لي مصالح مباينة لمصالحه.

والحب يقف سداً منيعاً دون الانفصال عن المحبوب حتى إذا بلغ الخلاف درجة تهدد الإحساس بالأمن من أن يبلغ درجة الخطر على المال والنفس، لم يعد الحب قادراً على منع الانفصال إلا في الحالات التي تبلغ فيها درجة العاطفة المريضة.

وأنا قد تربطني بإنسان من الناس صداقة وطيدة، لكنّ الصداقة لا تحول دون الاختلاف في الرأي ودون تباين المصالح، فإذا وقع التباين والاختلاف إلى الدرجة التي لا سبيل إلى تسوية أمور الصداقة معها انفرطت هذه الصداقة وبادت.

والشأن هو نفسه في ميدان الاحترام الذي أكنّه لغيري من الناس، والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم قد ربط الحب الزوجي بغرضين أساسيين هما الحصول على السكينة والفوز بالموّدة والرحمة.

قال الله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.)

فإذا لم تحصل السكينة ولم يتم الفوز بالمودة والرحمة انفصمت عرى الحب الزوجي فكان الطلاق، وإذا فنحن نحب لأنّ الحب كما أراد الله عزّ وجلّ مصدر للأمن وللإحساس بالسكينة والمودة والرحمة. والحب أقوى من الصداقة، والصداقة لا تقل شأنًا عن دور الاحترام في النفس، فهما يتعرضان للانفصام والسقوط إذا لم يتوفر معهما الإحساس بالأمن والسكينة والفوز بالمودة والرحمة.

لكن الوضع يختلف حين يتعرض الناس لخطر مشترك يهدد أمنهم ويعرضهم للمهالك، وفي هذه الحال يشعر كل فرد بأنّه في حاجة لمساندة كل فرد آخر وعونه ليدراً الخطر المشترك عن نفسه، ولذلك تسقط كل الخلافات وتختفي كل الشكوك ويتقارب الناس بعضهم من بعض، وهذا ما يحدث عندما يتعرض الوطن للخطر الخارجي أو تنزل به نازلة مثل إعصار مدمر أو زلزال أو وباء، والناس في هذه الحالة يتنادون ويتبادلون المشورة بإخلاص وحماسة.

وحكمة تشيخوف التي أوردناها تبطل في حالة واحدة هي أن يفقد الإنسان غريزة حب البقاء، فتعمى بصيرته ومن ثم يصر على الاختلاف والتنازع رغم الخطر المشترك الذي يهدده ويهدد غيره من أبناء وطنه. والسؤال الذي يرد علينا الآن باعتبارنا أمة تواجه خطر الصهيونية الذي يهدّد الجميع بفقدان الأمن وتجميد مسيرة النهضة.

هل سينتهي هذا الخطر إلى إسقاط كل الخلافات وتدعيم روح التضامن بين أفراد الأمة الواحدة أم أنّ الإنسان العربي قد فقد الإحساس بغريزة حب البقاء والدفاع عن النفس؟ نحن نميل رغم كل السلبيات الظاهرة إلى الإيمان بأنّ الإحساس بغريزة حب البقاء لا يزال موجوداً حتى اليوم لن يموت أبداً .

إنّ أمة حافظت على وجودها عبر آلاف السنين رغم النكبات والغزوات الرهيبة لا بدّ وأن تستيقظ رغبتها في البقاء وتتغلّب على دوافع التفكك ونزعات النفوس الأمّارة بالسوء والفحشاء.